العرب
الخميس 2021/08/19
السنة 44 العدد 12153

إيران وطالبان: براغماتية معقدة لا أعداء ولا أصدقاء

الرئيس الإيراني لم يظهر سعادته بطالبان بقدر شماتته بهزيمة الولايات المتحدة

عين إيرانية على طالبان وأخرى على شيعة أفغانستان

بدا تصريح الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي بشأن سيطرة طالبان على السلطة في أفغانستان المجاورة، أشبه بجس نبض وترقب قلق، فإيران الإسلامية الشيعية لم تحسم أمورها بشكل جازم بشأن مستقبل علاقتها مع أفغانستان الإسلامية السنية، بالرغم من البراغماتية السياسية المعروفة في علاقة طهران مع التنظيمات السنية المتطرفة.

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

لندن - ستكون سلة نفايات الاعتبارات في السياسة الخارجية الإيرانية أقرب إلى أي شيء آخر من مصطلحات متطرف ومعتدل عندما تفكر إيران باستراتيجية التعامل مع طالبان بوصفها جارا سياسيا انتصر نيابة عنها على "الشيطان الأكبر" بغض النظر عن الكراهية الدينية والسياسية التي تكنّها طالبان لإيران الشيعية.

ولم يظهر الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي سعادته بطالبان بنفس القدر من شماتته بهزيمة الولايات المتحدة في أفغانستان.

وقال رئيسي بعد سيطرة طالبان على العاصمة كابول "الفشل العسكري للولايات المتحدة في أفغانستان يتيح فرصة لتحقيق سلام دائم في البلاد".

ولا تخفي طهران قلقها من الأوضاع المتصاعدة في جارتها الشرقية التي تتشارك معها حدودا بطول أكثر من 900 كلم، إلا أنها في الوقت نفسه تتبنى مقاربة براغماتية متصالحة حيال حركة طالبان.

ويعبر الآلاف من الأفغان الحدود إلى إيران يوميا، وينضمون إلى مليوني لاجئ أفغاني استقرّوا هناك بعد الحروب السابقة.

وينحدر معظم هؤلاء اللاجئين من الشيعة الأفغان "الهزارة". وتمّ تجنيد البعض منهم في ميليشيا فاطميون التي قاتلت في سوريا للدفاع على نظام الرئيس بشار الأسد.

ويشرف الحرس الثوري الإيراني على إعداد وتجهيز وتدريب ميليشيا فاطميون الشيعية الأفغانية.

المتطرفون الإسلاميون

ترتبط إيران الشيعية بعلاقة معقدة مع حركة طالبان السنية. تبدأ من قلقها الطائفي من التكوين الجديد للطوق السني، وبالنظر إلى أن طالبان تحمل كراهية عميقة للشيعة، فإن ميزان القوى الجديد هذا قد يشكل كابوسا وجوديا لإيران. خصوصا إذا تصاعد نشاط التنظيمات الإسلامية المتطرفة في جنوب آسيا، فإنها على الأغلب ستحصل على دعم الحاكم الجديد في أفغانستان عندما يتعلق برفضها للأصولية الشيعية في إيران.

وقال بيتر نيومان أستاذ الدراسات الأمنية في كينغز كوليدج لندن، إن "المتطرفين الإسلاميين في جميع أنحاء العالم حصلوا على دفعة مطلوبة وقوية من انتصار طالبان على الولايات المتحدة، فأنصار القاعدة كلهم يحتفلون بالانتصار على الولايات المتحدة، وهو ما يأملون في تحقيقه".

وأضاف "الكثير من الجماعات سوف تنزل من الجبال والمخابئ معتمدة على هذا الانتصار من الناحية الدعائية".

ولا يخفي الخطاب السياسي الداخلي الإيراني احتقاره لحركة طالبان الإسلامية الأصولية، وفي عام 1998 كادت طهران أن تقدم على عمل عسكري ضد الحركة، بعد أن قتل مقاتلو طالبان ثمانية دبلوماسيين إيرانيين ومراسل وكالة الأنباء الإيرانية الرسمية إيرنا في القنصلية الإيرانية في مدينة مزار شريف الأفغانية.

وعلى عكس ما هو عليه الحال في العراق واليمن، فإن ميليشيا فاطميون المكونة من الهزارة الشيعة المدعومة من الحرس الإيراني تدريبا وتسليحا، لا تملك قوة حزب الله اللبناني أو ميليشيات الحشد الشعبي العراقية أو الحوثيين في اليمن، وبالتالي لا تشكل تحديا خطيرا لطالبان.

ووضعت طالبان الشيعة الأفغان تحت سطوتها بمجرد دخولها كابول، عندما أمرت بتنزيل الرايات من على مباني الحسينيات الشيعية ورفع علم طالبان بدلا منها، خصوصا وأن اجتياح طالبان تزامن مع مراسيم إحياء ذكرى عاشوراء التي تعد أحد أهم المناسبات الشيعية في استذكار مقتل الإمام الحسين بن علي.

ومع ذلك لا تتواني طهران عن دعم طالبان عندما تحقق مصالحها خصوصا ما يتعلق بعلاقتها مع الولايات المتحدة، فقد كشفت تقارير استخباراتية أنه في السنوات الأخيرة قامت طهران بتمويل مقاتلي طالبان من أجل استهداف القوات الأميركية.

وسبق وأن نشرت المخابرات الأميركية معلومات تظهر كيف دفعت طهران "مكافآت" لطالبان لمهاجمة الأميركيين في أفغانستان.

ويتعيّن على إيران اليوم وضع استراتيجية جديدة تتكيّف مع وجود حركة طالبان التي لا يمكن عدها عدوا لدودا أو صديقا ودودا.

وباتت إيران، التي تمسّكت بمبدأ طرد القوات الأميركية من العراق والخليج وأفغانستان، تُدرك أن القوات الدولية التي ساعدت أفغانستان، ولو جزئيا، في عرقلة نهج طالبان، كانت تعمل لمصلحتها.

وقال روزبه بارسي من المعهد السويدي للشؤون الدولية، إن خروج القوات الأميركية من المنطقة كان هدف إيران المعلن، لكن رحيلها لم يكن موضع ترحيب من طهران.

وأضاف بارسي في تصريح لوكالة الصحافة الفرنسية أن "الدعم الأميركي للحكومتين في أفغانستان والعراق كان مفيدا أيضا لإيران من حيث أنه ضمن نوعا من الاستقرار وتحملت الولايات المتحدة العبء الأكبر".

وشبه الرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي عودة حركة طالبان إلى أفغانستان بعاصفة تضرب أفغانستان لفرض "التخلف والرعب، وضياع أبسط حقوق الناس، بدلا من الأمل بالحياة المستقرة الآمنة".

حليف أم عدو

عودة طالبان لحكم أفغانستان ستظهر لنا براغماتية لاحدود لها لإيران

سيطرة طالبان على أفغانستان كارثة استراتيجية بالنسبة إلى طهران

رحيم الكعبي دانيش كامات

وحذّر خاتمي من "النزعة المناوئة للشيعة"، وقال إن "توجهها الطائفي يوجه خطرا مضاعفا للشيعة في أفغانستان".

بينما اعتبر الرئيس الأسبق محمود أحمدي نجاد أن حركة طالبان "تشكل خطرا جديا ضد إيران والمنطقة"، مشيرا إلى أنها تسعى وراء "إقامة خراسان الكبرى".

تقاطع في التعامل مع طالبان

يكشف هذا التقاطع بين القوى السياسية أن النظام الإيراني في حيص بيص، وهو الآن يواجه احتمالية أن تؤدي سياسة طالبان في أفغانستان إلى إلحاق ضرر غير متوقع بالمصالح الاستراتيجية لإيران، بما في ذلك علاقة طهران بباكستان.

مع ذلك تذهب بعض التحليلات إلى أن إيران تتعامل بجدية مع خيار توسيع التعاون مع طالبان التي تستخدم إيران منذ سنوات كطريق لتصدير المخدرات إلى الغرب، ما يوفر مصدر الدخل الرئيس لأنشطتهم.

وقال المحلل السياسي الإسرائيلي تسفي برئيل "إيران ليست لديها مشكلة في التعاون مع الحكومات والمنظمات السنية، حتى عندما تدافع عن آراء دينية أو وطنية معارضة لمبادئها".

واستشهد برئيل في تقرير له بصحيفة هآرتس الإسرائيلية بما وصفه المرشد الإيراني علي خامنئي، بـ"المرونة البطولية" التي أظهرتها إيران عدة مرات في السنوات الأخيرة، مشيرا إلى أن أيديولوجية إيران تخفت عند الضرورة.

ويرى الأستاذ الجامعي والمحلل السياسي العراقي رحيم الكعبي أن عودة طالبان لحكم أفغانستان ستظهر لنا بمنتهى الوضوح براغماتية لا حدود لها لإيران.

وقال الكعبي في تصريح لـ "العرب"، "لا جديد يُذكر ولا قديم يُعاد في علاقة إيران بطالبان أفغانستان، فلطالما عُرفت طهران بعلاقتها بالتنظيمات المتطرفة، استضافة ودعما وتدريبا على أراضيها".

وسبق وأن كشفت تقارير أمنية أن عددا من قادة تنظيم القاعدة ظلوا لسنوات، وربما لا يزال البعض منهم إلى غاية يومنا هذا في إيران، بل إن عددا من أجنحة القاعدة تلقت التدريب والدعم على الأراضي الإيرانية لسنوات عدة عندما كان هذا التنظيم ينشط في العراق، في نفس الوقت الذي كانت تدعم وتدرب فصائل مسلحة عراقية تقاتل القاعدة على الأراضي العراقية.

ويعزو الكعبي هذه البراغماتية السياسية الإيرانية إلى انعدام الحدود في المفاهيم الإيرانية عندما لا تقف عند عتبة الدعم من الباطن للمُختلف معه عقائديا ومذهبيا، فهي لا تتردد إطلاقا في التخلي عن الذين تدّعي أنهم حلفاؤها عقائديا متى ما شعرت بأنهم تحولوا عبئا عليها.

وقال إن إيران ستركز في تعاملها مع ملف طالبان وبعد أن تستغله للتشهير بالولايات المتحدة وفشل سياساتها الخارجية، ستحرص على إبقاء أفغانستان منطقة هشة لا استقرار فيها، عبر تبني مجموعة تكتيكات طالما عُرف الإيرانيون بتوظيفها في مثل هذه المواقف، مثل تأسيس حركات مسلحة متطرفة تشغل طالبان وتنافسها وتحول دون أن يستقر لها الأمر في عموم أفغانستان.

وعبّر عن توقعه أن تقوم طهران بتجميد المجاميع الأفغانية المسلحة التابعة مذهبيا لإيران، أو تسكينها في الفترة الحالية، بانتظار ما ستؤول إليه الأمور.

وقال الكعبي "في كل الأحوال وبعيدا عن المواقف الإيرانية المُعلنة الداعمة لطالبان هذه الأيام، فإن طهران قد بدأت بالفعل استراتيجية إشغال طالبان وإنهاكها".

غير أن المحلل السياسي دانيش كامات المختص بشؤون الشرق الأوسط لا يتفق كثيرا مع ما ذهب إليه الكعبي، معتبرا سيطرة طالبان على أفغانستان كارثة استراتيجية بالنسبة إلى طهران.

وكتب كامات في مقال بموقع "سنديكيشن بيورو" المختص بشؤون الشرق الأوسط وأفريقيا "على الصعيد السياسي، فإن حكومة طالبان المنفصلة عن النفوذ الإيراني ليست إرثا سياسيا يود المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي تركه وراءه. ولم تلتزم طالبان بأي التزام جاد بالتعددية الدينية والطائفية، بخلاف السماح بعقد عدد قليل من النشاطات الشيعية".

واعتبر أن التواصل السابق بين طهران وطالبان خصوصا عند استضافة إيران محادثات بين الحكومة الأفغانية وحركة طالبان، كان وسيلة تحمي نفسها من التواجد الأميركي في أفغانستان على الرغم من كراهية إيران للفكر الطالباني السني.

بينما اعتبرت أسلي آيدينتاسباس من مركز الأبحاث التابع للمجلس الأوروبي للعلاقات الدولية أن إيران ستخسر إذا عادت طالبان لتنتهج أساليبها القديمة وتؤمّن ملاذا آمنا للمتطرفين الإسلاميين.

ومهما يكن من أمر فإن إيران التي تمتلك خمس بعثات دبلوماسية في أفغانستان، أبقت بعض الدبلوماسيين هناك، بعد أن أخلت الباقين، وهذه إشارة انتظار للرسالة المرتقبة من طالبان.

محمد خاتمي
حركة طالبان عاصفة تضرب أفغانستان وتهدد الشيعة وتفرض التخلف والرعب

الآن وقد انتصرت طالبان، عليكم ألا تستهينوا بالقبائل

واشنطن - حققت حركة طالبان انتصارا سريعا وكبيرا في أفغانستان بفضل عوامل عدة من بينها ضعف الحكومة الأفغانية المدعومة من الولايات المتحدة، وهشاشة البنية التحتية التي قامت عليها "الدولة" ما بعد الغزو الأميركي عام 2001. لكن هناك طبيعة سكانية اجتماعية وقبلية معقدة لم تفهمها واشنطن جيّدا في تعاملها مع المشكلة الأفغانية.

ويقول المؤرخ الأميركي جيريمي سوري، صاحب كرسي ماك براون المميز للقيادة في الشؤون العالمية بجامعة تكساس في أوستن، إن الانهيار السريع للدولة التي بنتها الولايات المتحدة في أفغانستان "يُعد تذكيرا مؤلما بأن الدول ليست الشكل الوحيد للتنظيم السياسي، بل أبعد ما تكون عن ذلك".

وفتح الانهيار السريع للحكومة في كابول باب التساؤلات حول الطبيعة السياسية والتوزيع القبلي الذي ساهم بشكل أساسي في ربط حركة طالبان خيوطها داخل اللعبة الأفغانية جيدا قبل تنفيذها هجومها الواسع والسريع للسيطرة على البلاد.

ويعرض المؤرخ جيريمي سوري في مقال نشرته مجلة "فورين بوليسي" الأميركية، ويحمل عنوان "لماذا انتصرت القبائل الأفغانية على الولايات المتحدة؟"، أسباب الانهيار السريع للدولة الأفغانية وهزيمة الولايات المتحدة القاسية.

وعلى الرغم من أن واشنطن تتحدث عن أن هدفها ليس بناء دولة في أفغانستان، إلا أنها فشلت في فهم التوزيع القبلي والتركيبة السكانية للمجتمع الأفغاني وتقسيماته المتنوعة.

يقدم سوري في مقاله كتاب لسوميت غوها يحمل عنوان "القبيلة والدولة في آسيا خلال خمسة وعشرين قرنا"، وهو الكتاب الذي يعطي سياقا حاسما لفهم أحد أقوى أشكال التنظيم السياسي الذي يضغط على الدول: القبيلة.

وغوها هو مؤرخ من جنوب آسيا ذو توجه اجتماعي، ويركز على ما يسميه "البيئة السياسية للحياة القبلية". ويجادل بأن المناخ والتضاريس يمكّنان الأشكال الرعوية واللامركزية من التنظيم الاجتماعي على حواف الإمبراطوريات والدول. ويشير إلى أن المجموعات في تلك المناطق تعيش من خلال شبكات القرابة والتكيف مع الأرض وتقاوم الدخلاء الأقوياء، وتتأقلم مع التغييرات الأوسع في السياسة والاقتصاد.

ويقول سوري إن هذه النقطة الأخيرة هي واحدة من أهم مساهمات غوها، إذ أن القبائل ليست بقايا أثرية لماض ضائع ولكنها تتمتع بقدرات على التكيفات الديناميكية والحديثة للتهديدات والحوافز في عالمنا المعاصر.

ويقدم مؤلف الكتاب مسحا رائعا لأمثلة عبر القارة الآسيوية، بما في ذلك قبائل وادي سوات في باكستان، والأقليات العرقية في الصين، والقبائل في الهند. وقد استجابت كل مجموعة من هذه المجموعات للدول القوية من حولها بطرق تعيد تشكيل هوية قبائلها لغرض البقاء.

ففي الهند، على سبيل المثال، استخدمت قبائل مختلفة النظام الديمقراطي الهندي للمطالبة بحصص في الوظائف الحكومية والتوظيف الجامعي، تماما كما قاوم نظراؤها في باكستان المجاورة الدولة ودعموا الجماعات شبه العسكرية التي تعبر أفغانستان.

ويقول سوري إن "طالبان هي ثمرة حديثة للقبائل في باكستان، تعمل أحيانا ضد الدولة في إسلام أباد وأحيانا معها".

وينتقد غوها الطريقة التي يتحدث بها الأكاديميون والصحافيون وصناع السياسات عموما عن القبائل ووصفها بعبارات مشحونة بافتراضات حول الدونية الثقافية والجمود والالتزام بالتقاليد في تضارب صارخ مع الدول العقلانية والمبتكرة.

ويضيف أنه "لا يمكن للأميركيين من جميع الأطياف السياسية زعزعة الاعتقاد بأنهم يعرفون أكثر من سكان القبائل في أفغانستان. وأمضوا 20 سنة وهم يحاولون تنظيم أنفسهم كجيش وبيروقراطية دولة حديثة". ولا يصف غوها عالما بديلا من اليوتوبيا القبلية، ولكنه بدلا من ذلك يقضي على الادعاءات بأن الدولة يمكن أن تحل محل القبائل في أفغانستان وأماكن أخرى.

ويوضح المؤرخ الأميركي أنه "بينما تحاول الدول القوية فرض طقوسها وأهدافها، تتكيف القبائل وتقاوم ببراعة ملحوظة، وتتمتع بميزة أخرى، حيث تفضل البيئة السياسية المجتمعات الرعوية اللامركزية".

ويضيف أن ذلك تجلى في أفغانستان على مدى عقدين من الزمن حيث جاءت نهاية عنيفة للغاية، في الوقت الذي رسمت فيه طالبان هيكل أفغانستان وباكستان القبلي بشكل أفضل بكثير من الولايات المتحدة وتمكنت من النجاة من الهجمات الأميركية المتكررة بفضل ذلك.

جيريمي سوري
القبائل تتمتع بقدرات على التكيفات الديناميكية للتهديدات

ويتوقع سوري أن تواجه طالبان مقاومة مستقبلية من العديد من القبائل، خاصة في الشمال، لكنها لن تحاول بناء دولة مركزية بيروقراطية، كما حاولت الولايات المتحدة.

يكتب غوها عن "عودة ظهور القبائل" في آسيا وقارات أخرى، حيث تشجع تقنيات الاتصال والحرب هذه البيئة السياسية، وتساعد الشبكات المحلية على التنظّم ومقاومة القوى الأكبر البعيدة.

ويلاحظ غوها أن عودة ظهور القبائل لا يمنع عودة ظهور الإمبراطوريات، مثل الصين، التي تستفيد من تقنيات الاتصالات وخوض الحروب من أجل التوسع والاستحواذ، لكن السؤال الذي يحفزه بحث غوها هو ما إذا كانت مشاريع بناء الدولة قد تنحصر في الوسط.

يقول المؤرخ جيريمي سوري إن القومية تبقى ظاهرة يتجاهلها غوها في كتابه، لكنها تبدو أقوى من أي وقت مضى في الصين وروسيا والهند والبرازيل والعديد من المجتمعات الأخرى غير المتجانسة عرقيا.

ويضيف أن هذه التحدّيات التي تطرحها الجهات الفاعلة الفرعية أدت إلى عودة المتشددين إلى الادعاءات المتعلقة بالتفوق الوطني والحق في السيطرة على الآخرين، حيث غالبا ما يتم دمج العرق في هذه الادعاءات القومية، وتحديد من ينتمي ومن لا ينتمي.

ويرى سوري أن خلاصة كتاب غوها تتضمن فهم أن الدول ليست اللاعب الوحيد، على الرغم من أنها تظل أساسية في معظم النماذج والمؤسسات، حيث أن القبائل حديثة وعقلانية ومبتكرة على حد سواء، وتتنافس داخل الدول وخارجها، وتستحق الاهتمام كعناصر مكونة مشتركة للسياسة العالمية المعاصرة وليس كجهات فاعلة قديمة يجب القضاء عليها.

من يفهم عقلية «القبيلة»